المحاضرة الخامسة

(مقدمة في الشعوب التيتونية اصولها ، عددها ، قبائلها)

قدر للشعوب التيتونية ان تضع نهاية للامبراطورية الرومانية في الغرب . ولهذه الشعوب اهمية خاصة في تاريخ اوربا ، فهي بعد ان استقرت في الاقاليم الغربية الامبراطورية ، أثرت تأثيرا عميقا في رسم معالم التركيب البشري والسياسي والثقافي لتلك الاقاليم. ومن العنصرين الروماني والتيتوني ، بشكل رئيس ، برزت الامم الأوربية الحالية مثل الايطاليين والفرنسيين والالمان والاسبان والانكليز ، بلغاتهم وشعوبهم ، ودولهم وآدابهم وثقافاتهم .

واذا كانت اوربا تمثل في العصر الحديث وحدة حضارية لها خصائصها وسماتها المتميزة ، فان تلك الوحدة ترجع الى ثلاثة اصول هي : التراث الكلاسيكي اي اليوناني والروماني ، خاصة الروماني . منه ، والمسيحية ، ثم الشعوب التيتونية. واختلفت الآراء حول الموطن الاقدم للشعوب التيتونية، فقيل الهند ، او بعض مناطق آسيا الوسطى ، او شمال البحر الاسود. ولكن الامر المعروف تماما ، انهم كانوا يسكنون في وقت من الاوقات شبه جزيرة اسكندنافية وحول بحر البلطيق . وقدر الوقت الذي استغرق لهجرتهم من مواطنهم الاصلية الى مناطق الراين والدانوب بالف وخمسمئة عام .

وانحدرت تلك القبائل التيتونية التي ضغطت على حدود الامبراطورية الرومانية خلال القرنين الرابع والخامس للميلاد عبر المنطقة الكائنة جنوب بحر البلطيق وعرب نهر الفستولا. وقد سبق الكلتيون التبتونيين في استيطان اوربا ، فسكنت الشعوب الكلتية في وقت من الأوقات كل وسط اوربا من المحيط الاطلسي الى البحر الاسود . اما الشعوب السلافية فقد جاءت في اعقاب الشعوب التيتونية وانتشرت في المنطقة الواقعة في اسفل منابع الفستولا ونهر الاودر .

وقد اطلق الرومان على الشعوب التيتونية اسم الجرمان (Germani) وليس هناك اتفاق تام عن اصل هذه التسمية . ويقول المؤرخ الروماني تاكسيتوس ان التسمية في الأساس هي لقبيلة تيتونية معينة ثم اخذت تطلق على جميع القبائل التيتونية.

واعتاد الرومان ان يطلقوا على التيتونيين ايضا اسم البرابرة (barbarians) وهذه لا تعني بكل تأكيد الهمج او المتوحشين ففي الاصل اللاتيني نشير لفظة بربري (barbarl) الى اولئك الناس الذين لا يتكلمون اللغة اللاتينية واللغة اليونانية ، وبمرور الزمن صارت اللفظة تطلق على أولئك الذين تختلف حضارتهم شأنا عن الحضارة

اليونانية والرومانية ، واخيرا اطلقت على اولئك المتخلفين حضاريا او اولئك الذين تعوزهم صفات واخلاق وميزات المجتمع المتمدن . وفي القرن الرابع الميلادي، حيث صار الجيش الروماني مؤثلفا باغلبيته من الجرمان ، كانت كلمة بربري تستعمل مرادفة لكلمة جندي وفي وقت اشتدت فيه الهجمات الجرمانية وازداد فيه الهلع والخوف منهم، خاصة في القرنين الرابع والخامس بولغ كثيرا في عدد نفوس القبائل الجرمانية وفي عدد افراد كل قبيلة . ولعل الأمر الذي شجع على تلك المبالغة كثرة تنقل القبائل الجرمانية وسرعة حركتها من محل الى آخر. ولكن التقديرات المقبولة ، تعطي القبائل الكبيرة منها او الشعوب – وهذه اتحادات قبلية كبيرة – مئة الف فرد منهم بين عشرين وثلاثين الف مقاتل والبقية من النساء والاطفال والشيوخ والعبيد . ولعل ما يدلل على خوف الرومان من كثرة عدد الجرمان ذلك الأمر الذي اصدره ثيودسيوس منع بموجبه الغوط من ارتداء زيهم الخاص عند الظهور في المدن الرومانية ، وذلك كي لا تثير كثرتهم القلق والخوف في النفوس.

هذا من ناحية عدد النفوس ، اما من حيث عدد القبائل والعشائر المتفرعة منها واسمائها فانها امور يصعب معرفتها . فقد كانت هناك تجمعات قبلية كبيرة ، وكانت هناك احلاف قبلية . وكانت هذه كثيرة وسريعة التبدل والتغير ، اذ كثيرا ما تنتقل القبيلة الواحدة من حلف الى آخر . والاسم الوحيد المعروف في اغلب الاحيان هو اسم القبيلة المتفوقة والمنتصرة وكثيرا ما فرض هذا الاسم على القبائل الأخرى الصغيرة او المندحرة و ذكر المؤرخ الروماني تاكيتومي في نهاية القرن الأول للميلاد اسم خمسين قبيلة . واعطى اخرون في القرن الثاني للميلاد اسماء سبعين قبيلة .

وكانت القبائل الجرمانية القاطنة على طول نهر الراين وعلى حدوده الشمالية السكسون ((saxons) (الانكليز) (Angles) (الألمـ باني) (Almani) البرغنديون (Burgundion) والفريزيون (Frisions) السوفي (Suevi)

اللومبارد (Lombards) الفرنجة البحريون (Ripuarian franks) والفرنجة الساليون او البريون . وعلى طول حدود الدانوب و شماله كانت هناك (Salian Franks) ماركوماني (marocomani) كودي (Quadi) جابيدي (Gapidaae) هرولي (Herali) الوندال (Vandals) الغوط الغربيون [visigoths) الغوط الشرقيون (ostrogoths) . واما القبائل الاكثر اهمية واماكن سكناها على وجه التحديد هي كما يلي : الألماني في الجهات الجنوبية الشرقية لنهر الراين البرغنديون حول نهر المين ، الفرنجة البحريون جهات الراين السفلى . الفرنجة الساليون أو البريون في الاراضي المنخفضة . السكسون والا نكلز بين نهري الراين والالبا على سواحل بحر الشمال والى الشرق منهم قبائل اللومبارد . ثم الغوط الشرقيون في الجهات الشمالية الشرقية للبحر الاسود

والى الغرب منهم الغوط الغربيون . الوندال في جهات الدانوب الوسطى بين فينا وبودابست الحاليتين . وهناك جماعتان من بين كل ما ذكر قدر ان يكون لهما اثر دائم هما : الانكليز والفرنجة .

القبائل الجرمانية (علاقاتها الأولى بالرومان) :

بدأت القبائل الجرمانية في التحرك باتجاه نهرى الراين والدانوب من اما كن سكناها حول بحر البلطيق حوالي ٥٠٠ ق . م . واستمرت حركتها هذه خمسة قرون دون توقف ، كان الرومان خلالها منهمكين في حل مشكلاتهم الداخلية وفي فتوحاتهم الخارجية ، فلم يكترثوا كثيرا لهؤلاء الجرمان البعدين عنهم والذين لا يعرفون عنهم الا الشيء القليل . وقد وضعت حملة يوليوس قيصر على بلاد الغال واحتلاله لها . في القرن الأول قبل الميلاد الرومان والجرمان وجها لوجه لأول مرة في التاريخ . ومن حسن الحظ أن يوليوس قيصر نفسه قد ترك لنا وصفا ممتعا لانطباعاته الشخصية عن هذه الشعوب . ويمثل وصفه هذا اقدم المعلومات المتوفرة عن القبائل الجرمانية ، وردت هـ كتابه عن حملته على بلاد الغال الذي نشر في عام ٥١ ق . م .

وخلاصتها (انهم شعوب رعوية محاربة ، مولعون بالصيد والحرب اكثر من ولعهم بالزراعة ، يغطون جزءا صغيرا من اجسادهم بجلود الحيوانات ويتركون الجزء الاكبر منه عاريا . وهم كرماء ونظيفون ، يستحمون في الترع والبحيرات بمجموعات كبيرة وما يملكون من ارض مشاع للقبيلة كلها ولا يسمح لفرد واحد بامتلاك قطعة خاصة.

وبعد مرور قرن ونصف على وصف يوليوس قيصر الانف الذكر، جاء كتاب تاكيتوس: الجرمان (Germania) ليعطي تفاصيل اكثر عن حياة الجرمان وعن عاداتهم و طراز معيشتهم وديانتهم ومؤسساتهم السياسية . انهم يتميزون بشعرهم الاحمر او الاشقر وعيونهم الزرق واجسامهم الضخمة القوية . انهم مولعون بالحرب والصيد يبغضون العمل اليدوي والزراعة لذا يتركون هذه للنساء والعبيد . يقاومون البرد والجوع ، ولكن لا طاقة لهم بتحمل العطش والحر ، يحبون الشراب والمقامرة و هم محاربون اولا وقبل كل شيء . قوانينهم مجموعة من التقاليد والعادات وهي تختلف من قبيلة الى اخرى . والواقع ان الدافع من وراء تأليف تاكيتوس لكتابه هو توبيخ لمواطنيه الرومان لتدني مستواهم الخلقي بالمقارنة مع أولئك الجرمان البسطاء حيث الحياة العائلية والزوجية عندهم تمثل نموذجا للعفة والطهارة والصفاء، والمجتمعات الجرمانية مجتمعات قبلية . التأكيد فيها على رابطة القرابة والدم وليس على رابطة الوطن والمواطنة . وكانت بعض القبائل الجرمانية تتحد مع بعضها البعض فتكون اتحادات قبلية كبرى او شعوبا . وكان هناك ملوك على رأس كل شعب من تلك الشعوب . وفي البداية لم يكن أولئك الملوك سوى زعماء حرب وقادة جيوش ، اختيروا من قبل الاحرار وهم خاضعون لارادتهم . ولكن في الوقت الذي

دخلت فيه الشعوب الجرمانية الى الامبراطورية الرومانية ، كانت قد تطورت بحيث اصبح هناك لانتخاب القائد أو الزعيم من عائلة معينة وهكذا فان الشعوب الجرمانية اخذت بالنظام الملكي ومبدأ الوراثة في الحكم.

وكانت القبائل الجرمانية خلال القرون الثلاثة التي سبقت سقوط الامبراطورية الرومانية في الغرب في حركة مستمرة ، فهي ابعد ما تكون عن الاستقرار، ولعله من غير الصواب الاعتقاد بان الامبراطورية الرومانية واجهت خطرا جرمانيا موحدا . والواقع ان الحروب بين الشعوب الجرمانية نفسها والخلافات القبلية مكنت الحكومة الرومانية لفترة طويلة من استخدام احدى القبائل ضد الأخرى ، وتحريك زعيم ضد آخر ثم الاحتفاظ بنوع من السيطرة والنفوذ عليهم جميعا. ونتيجة لتلك القرون الطويلة من الجوار صار الكثير من الجرمان ملمين بطريقة الحياة الرومانية شغوفين بها . وقد اسعف الحظ بعضهم فعبروا الحدود الرومانية أفراداً وجماعات ليصبحوا مزارعين في الحقول الرومانية ، أو ليخدموا جنوداً في الجيش الامبراطوري. وفي حالات كثيرة سمح لقبيلة بكاملها باجتياز الحدود والاستيطان ضمن حدود الامبراطورية كحليفة ، وقد انيطت بها مهمة الدفاع عن الحدود . في المنطقة التي استقرت فيها ضد بقية القبائل الجرمانية واعتبرت حليفه.

وقبل سقوط الامبراطورية الرومانية في الغرب بوقت طويل ، صارت الفرق الرومانية مكونة معظمها من جنود جرمان وكان أولئك الجنود يكنون الكثير من الاخلاص والولاء للامبراطور والاحترام للامبراطورية . وشاركهم هذا أولئك الجرمان الذين لم يسعفهم اجتياز حدود الامبراطورية وفي العيش في كنفها . لقد كانت الامبراطورية الرومانية والأرض الرومانية جزءا جميلا من العالم الذي يعرفه الجرمان ويعجبون به. ان مؤسساتها ومدنها الجميلة وحقولها الخصبة تفوق ما سواها مما يعرفون. ولم تكن طموحاتهم تتعدى ان يصبحوا جزءا منها ، مستقرين بصورة سلمية ضمن حدودها ولم تكن لدى الزعماء والقادة الجرمان امنية اعلى من ان يكون لهم شرف في الخدمة في جيش الامبراطور وتحت قيادته. والخلاصة ان شعور الاحترام للامبراطورية والامبراطور كان عميقا عند الشعوب الجرمانية . وقد بقى كذلك حتى بعد سقوط الأمبراطورية .

وما ان حلت نهاية القرن الرابع الا وكان هناك عدد كبير من الجرمان قد اجتازوا الحدود الرومانية بصورة سلمية واستقروا ضمن حدود الامبراطورية . كما وكان هناك عدد اكبر ينتظر الفرصة المواتة للقيام بمثل هذا الاجتياز. ولعله كان من المحتمل استمرار عملية التسلل السلمي هذه الى ما لا نهاية دون عنف ، ولكن حدث امران غيرا هذا الاتجاه و بدلا الطبيعة السلمية للعلاقات بين الرومان والجرمان . وأول هذين الحديثين الضغط الذي تعرضت له القبائل الجرمانية نفسها من جراء زحف قبائل الهون الاسيوية نحو اراضيها الأمر الذى اضطرها الي التوغل

في الاراضي الرومانية وثانيهما تزايد ضعف الامبراطورية الرومانية وافتضاح امر هذا الضعف امام القبائل الجرمانية الامر الذي شجعها على الاستفادة من هذه الفرصة المتاحة امامها.